الجريدة aljarida

صور أليسيو رومنزي... رائحة موت دفين في حمص

افتتحت جمعية «أمم للتوثيق والأبحاث» معرض صور فوتوغرافية في هنغارها في ضاحية بيروت الجنوبية. الصور بعدسة المصور أليسيو رومنزي، الذي زار سورية خلال شهر فبراير الفائت، موثقاً الحياة اليومية كما القتال وآثاره على الناس في مدينتي القصير وحمص.

منذ عام 2005، يعمل أليسيو رومنزي مصوّراً صحافياً مستقلاً وقد نَشَرَت الصورَ المُذيّلةَ بتوقيعه كبريات المطبوعات في العالم. نجح في الهروب من جحيم القصف على باب عمرو في حمص ونشر صوره المعبرة في مجلة «التايم» الأميركية. قال بعد إقامة نحو الشهر في حمص والقصير: «لقد أمضيت الكثير من الوقت مع أناس مذهلين، مذهلين، وقد حظيت بفرصة الخروج، أما هم فما زالوا قابعين في الجحيم». في مهمة لـ{التايم»، اتخذ لنفسه ملجأً مع السكان المحليين في أحد الأقبية الواقعة في أحد منازل باب عمرو. هناك، لا أحد يجرؤ على

التخطي خارج المنزل أو حتى الطابق العلوي خوفاً من القذائف التي تسقطها الحكومة عليهم. وقد سُحبت الجثث من الشوارع ووضعت في المنازل كي لا تتعفن في العراء، فمن الخطير جداً إجراء الجنازات. أحصى رومنزي 25 حالة وفاة لمدنيين في ساعتين فقط من القصف في أماكن تواجده في حمص. كذلك كتب في رسالة إلكترونية: «كلمة آمن ليست في قاموسنا في هذه الأيام».

أليسيو رومنزي شأن الكثيرين من زملائه، ما إن أخذ «الربيع» يدب في أوصال العالم العربي حتى يمم شرقاً فزار مصر وليبيا وساهم في توثيق ثورتيهما؛ وفي فبراير من العام الحالي، 2012، وجد نفسه مقوداً إلى سورية، خصوصاً إلى مهوى القتل والقتال حينذاك: حمص والقصير.

ربما يكون رومنزي أشهر من تابع مجريات الأحداث ميدانياً في حمص إلى جانب الروائي جوناثان ليتل الذي أصدر كتاباً بعنوان «دفاتر حمص»، وهو عبارة عن تدوين لملاحظات الروائي إبان إقامته غير العلنية في حمص التي قصدها لمصلحة صحيفة «لو موند» بين 16 يناير والثاني من فبراير المنصرم.

لا يدّعي الكاتب الحاصل على «غونكور» الفرنسية، ما يزيد على ذلك، في كتاب عمد الى الاشتغال مجدداً على مواده الخام بهدف إعادة صوغ المقاطع التي كان ليصعب فهمها خارج سياقها. أما النتيجة فوثيقة تتمحور على حي بابا عمرو الغارق في الدم. لقيت كتابات جوناثان ليتل مديحاً وثناء من بعض الكتاب العرب وصارت عبرة لمن اعتبر في الكتابة، إذ لم يجرؤ أحد من الكتاب العرب على زيارة أماكن محاصرة والكتابة عنها، ولم يتنازل الروائيون العرب لتدوين مقالات أو تقارير ميدانية عن الواقع السوري. وكل ما ياتي من جانبهم يصبّ في خانة التنظير عن بعد. حتى إن بعض الشعراء كان في مواقفه السياسية أشد فتكاً من الطغاة، وبعضهم عمد إلى الوقوف في منطقة قائمة على الالتباس من خلال كتابة إنشائيات شعرية لا يفهمها إلا من يضرب بالمندل أو على تواصل مع العارافات وقارئات الفنجان.

عبر حوناثان بالكلمة الروائية عما يحصل في حمص، وعبر أليسيو رومنزي بالصورة وثمة شبه بين التجربتين والشخصيتين. فالروائي سبق أن زار الشيشان بهدف العمل الإنساني، ويجد بأن الأحداث في سورية تتخطى الأحداث في الشيشان، إذ إن الوضع في الأولى مأخوذ إلى العنف الصرف. أما رومنزي فصور في ليبيا ومصر وسورية، وعلى ما يقول هو نفسه: «بخلاف مصر وليبيا، ما إن يصل المرءُ إلى سورية حتى تمتلئ رئتاهُ برائحة موت دفين، ويستبدُّ به الشعور بأن «الأعْظَمَ» لم يقع بعد... هذا ما وَجَدتني أوثّقه وأرويه. عملي كمصور أن أخبرَ الآخرين من خلال صوري بما يجري. ولكن في سورية لم أشعر بأنني أقومُ بعملي فقط... في سورية تملّكني الشعورُ بأنني أؤدّي واجباً أخلاقياً... بأنني أصوّر، أولاً، على نيّة الناس الذين أصوّرهم وليس على نيّة أولئك الذين يُطالعون الصحف التي قد يعنيها أن تنشر صوري».

مدينة تحت الموت

في صور رومنزي، مشهديات لمدينة تحت الموت، جثث هنا وعزاء هناك ومقاتلون يدافعون عن أنفسهم وحرائق هناك نتيجة قصف الدبابات... كل شيء يدل على رائحة الموت ولهيب الحرب. توثق صور رومنزي لذاكرة مرحلة مريرة في سورية شكَّلت المخاض لربيع مرتقب.